نازك الملائكة (2)

الشعر والنقد

وقد راحت الشاعرة تشيد بالموت خصوصا حين فقدت ما كانت تحلم به من عالم مثالي يحترم الإنسان ويقدس حريته ويمنحه حقوقه ، وراحت تتمزق لما تجده من صور الزيف والظلم التي تجابه الإنسان ، وترى أن الموت نعمة وخلاصة : ..

أفليس الممات في ميعة العمر　　　إذن نعمة على الأحياء

حين ينجو الحي الشقي من الخوف　　　ويفنى من واجبات الفناء

تاركا هذه الحياة وما فيها　　　من الزيف والبؤس والأيتام

بين كف الرياح والقدر العاتي　　　ونوح الشيوخ والأيتام

وواضح أن طلب الموت هنا ، سببه شقاء الإنسان حبيبا يتيما و شيخا كبيرا.

وإذا كانت الأبيات السالفة تجعل من الموت خلاصا ونعمة ، فإن الشاعرة قد ذهبت إلى أبعد من هذا في تعاملها معه ، فهي ترى أحيانا في الموت خلوده وراحة :

سأرى في الممات خلد حياتي　　　حين تعفو عني المني والجروح

وعلى الرغم من وضوح موقف الشاعرة من الموت وترحيبها به ، إلا أنها في مرحلة ضعف عقيدتها وقلة تجاربها وخبرتها ، كانت تتعذب لما تراه من فناء الإنسان بعد الموت ومن استحالة إلى جماجم ينخر منها الدود ، فقالت في معرض كلامها عن الإنسان :

هو الوحدة المريرة والظلمة في قبره المخيف الرهيب . . .

تحت حكم الديدان والشوك والرمل وأي الفناء والتعذيب ،

حسبه أن يودع دنياه إلى قبره وتفنى مناها

فاتركوا نعشه على الأرض حينا قبل أن تقبروه تحت اللحود

هكذا الآدمي يسلمه أحبابه للتراب والديدان

ولقد تجسد الموت أمام عينها بشكله الواقعي المعروف ، فمأساة الإنسان لابد أن تنتهي بالموت ، لذلك ارتبط لديها بالخوف والقلق على مصيره. فتقول :

أي قبر أعددت لي أهو كهف   ملء أنحائه الظلام الداجي

أبدأ أسال الليالي عن الموت   وماذا ترى يكون المصير ؟

والواقع أن هذا التصوير الرهيب للموت من جانب الشاعرة قد عكس علاقتها به ، على الرغم من ترحيبها به خلاصا من عذاب الحياة وقسوتها ، لذلك كانت صورته لديها رهيبة ، خصوصا في مراحل حياتها المبكرة. حيث تقول (أما أنا فلم تكن عندي كارثة أقسى من الموت).

ومن المضامين الرئيسة في شعر نازك ، الحب ، وهو موضوع أستأثر معظم الشعر الحديث. كما أستأثر الشعر الإنساني منذ أقدم العصور.

والبحث في حب نازك قد أثار مسألة الحكم على واقعيته وصدقه ، أي هل كان تعبيرها عنه يمثل تجارب حقيقية كما يرى بعض الدارسين ، أم أنها كانت تجارب متخيلة كما يحكم عليها البعض الآخر.

والبحث في ممارسة تجربة الحب لدى نازك ليس مشكلة ، لأن المهم لدينا هو الصدق في التجربة سواء كانت واقعية أم متخيلة كما يرى ذلك محمد مندور

ولو حاولنا فهم طبيعة الشاعرة وعواطفها وأحاسيسها ومشاعرها ، لأدركنا صدق ما عبرت عنه من تجارب في الحب

وعلى الرغم من أن الشاعرة لم تبح بمشاعرها في الحب لأسباب تحتفظ بها ، إلا أننا نحس في قصائد حبها حرارة العاطفة وصدق الموقف. وهذا هو الذي حدا بأحد الباحثين إلى أن يقول عن نازك (ظلت فترة طويلة تعيش انسحاق عواطفها وخيبة آمالها : في تحقيق النجاح بعواطفها ، ولقد كانت نازك هي شعرها . ولهذا كان شعرها صادق ومعبرا التعبير الحقيقي عن نبضات قلبها

وللتحقق من هذا الصدق نستحسن الرجوع إلى ما عبرت به عن مشاعرها في الحب من ذلك قولها في قصيدتها (طريق حبي):

طريقي اليك يمر بأودية لا تبين

مغيبة في ضباب التمني وعطر الحنين

طريق هواي هضاب غموض وأرض ظلال

وبيد تطيل التمني وتطلب مالا ينال

وهذا الطريق الذي ألمحت إليه الشاعرة ، يتفق تماما مع نظرتها إلى كل شيء ولذلك فليس من السهل أن تحصد الشاعرة ثمار حبها ، كما قالت في نفسها .

وطلب الحب لدى شاعرتنا يشيع في معظم مجموعاتها الشعرية الأولى ، عاشقة الليل ، شظايا ورماد ، قرارة الموجة . وهذا الطلب لا يخلو من دلالات نفسية سبق أن ألمحنا اليها

ويبدو أن تجارب الشاعرة في الحب قد ارتبطت بالماضي وقسوته وضغطه على الشاعرة . ولذلك فإن الزمن الماضي قد لعب دورا واضحا في تجارب حب نازك ، حتى ارتبط بظاهرة التكرار التي أولتها الشاعرة عناية فائقة في نقدها ، والتي تمثل لديها دلالات خاصة كما نرى.

ولذلك نجد لفظة (عد) تتكرر في إحدى قصائدها عن الحب ، حيث تقول:

عد، لم يزل قلبي نشيدا حالما	يشدو بحبك لحنه المفتون
عد، فالكآبة أغرقت بظلامها	روحي ، فليلي أدمع وشجون
عد، لا تدع نفسي يعذبها الأسى	ويغص فيها خافقي محزون
عد، فالحياة أو رجعت أشعة	ومشاعر سحرية وفتون

فتكرار لفظة (عد) هنا له دلالة ترتبط بالماضي والماضي عند نازك يتصارع مع الواقع ، والحاضر في حقيقته ثقيل قاس .

وقد تكررت كلمة (مر عام) في عدة قصائد تكرارا ملحوظة في موضوع قصيدة الحب ، ولا يتسع المجال للكلام عليه هنا.

ومثلما أرتبط الحب بالزمن الماضي فقد أرتبط بسواد الليل وجفاف الأرض في عدة قصائد ، وكذلك أرتبط بالأحلام والأيام الخوالي ، وساده نغم حزين وألم دفين، وعبرت عنه الشاعرة بما يوحي إلى عمق الإحساس وحرارة التجربة وصدق الموقف ، لقد تركت تجارب الحب

لدى الشعراء الرومانتيكيين ، آثار نفسية متميزة ، انتهت في معظم الأحيان إلى المال من الحياة ، والشعور بالخيبة والمرارة ، و كان من آثارها الشعور بقسوة الزمن الذي يمر . ولذلك تلفع الزمن في قصائد الحب لدى نازك بالقتامة والرتابة والبطء، وترك في نفسها خيبة نفسية وشعور بالألم. ولابد من القول أن الشاعرة حاولت أحيانا أن تميط اللثام عن نوع حبها الذي خاضت في سبيل تحصيله حربا مع الزمن . لقد صورته بانه حب نقي روحاني خالد ، أنه يقترب من حب العذريين الذين تغنوا بصفائه وسحره ، تقول الشاعرة.

حبي الإلهي النقي ظلمة	ووفاء روحي الشاعري العابر
قلبي الرقيق أسأت فهم حنينه	ونشيد أحلامي وروح قصائدي
لم أدر ماذا كان إلا رعشة	في روحي الولهى وقلبي الشارد
وخلا المكان ورحت أسأل وحشتي	عن طيفك الناس وحبي الخالد

وهذا التصور للحب ، يتفق مع عالمها المثالي الذي سبق أن أشرنا اليه

أستلهم الشعراء الرومانتيكيون الطبيعة للتعبير عن هواجسهم النفسية ولتجسيد ما تنبئ عنه خواطرهم ومشاعرهم وأحاسيسهم الدافقة .(ولاشك أن لرهف الحس سند الرومانتيكيين أثر عظيمة في هيامهم بالطبيعة في جميع مظاهرها . فهم يريدون أن يستلهمونها ويستوحوا أسرارها ، وأن يكون أدبهم صورة صدق للشعور الصادق بما يتجلى لإحساسهم من مظاهرها).

وإذا كان لرهافة الحس أثر في هيام الشاعر بالطبيعة ، فما أجدر أن يكون لشاعرتنا حضور واضح في كل مظاهرها. ونظن أن نازك قد امتلكت حسا دقيقا في رصدها لكل مظاهر الطبيعة . وأولها الليل الذي لفعت به أول دواوينا (عاشقة الليل)، ولأن الليل كان بلسم لجرحها ورثاء لعواطفها ومشاعرها بل كان تنفيس عن أنواع العذاب التي صدمتها :

آه يا ليل و يا ليتك تدري ما مناها

جنها الليل فأغرتها الدياجي والسكون

فمن العود نشيج ومن الليل الحنين

والواقع ، أن للفظة (الليل) وما يتصل بها من ظلمة ودياجي ومساء وغيرها ، دلالات نفسية بعيدة ، كثيرا ما تتحول لديها إلى رموز تكمن وراءها عوالم واسعة لا يستطيع كشفها إلا من رافق نازك في رحلتها الطويلة :

يا ظلام الليل يا طاوي أحزان القلوب

جنها الليل فأغرتها الدياجي والسكون

الليل فيه مخاوف ووساوس لا تحمد

وقد ارتبط بالليل مجموعة من مظاهر الطبيعة ، كالبحر والنجم والريح. وتحول كثيرا منها إلى رموز ذات دلالات مختلفة

في لجة البحر الرهيب سفينة تحت الماء

وتسير أمواج البحور على شبابي المغرق

البحر يا زورقي جنون وموجه ثائر دفوق

وانت في الموج والدياجي يا زورقي في غد غريق

وكذلك في شعرها ، الريح والأعاصير :

ها أنا وحدي على شط الممات   والأعاصير تنادي زورقي

الريح تصرخ حولها   وتضج في ظلم الفضاء

في عمق أعماقي في   أعاصير يجن جنونها

وترتبط بالليل النجوم أيضا :

الآن يا نجمي تغيب ولم يحن وقت الأفول

الآن والليل الجميل بريق ضوئك في الحقول
يا نجمي المأسور في كف الضباب الشامل
يا فيلسوف الليل يا سر الوجود الذاهل

وكثيرا ما تلجأ إلى النجم تطلب النجاة في ظلمتها العميقة :
رحماك يا نجمي الجميل متى نهاية ليلتي
أين الفضاء الحلو أين الصحو أين سنا النجوم

ومع أن مظاهر الطبيعة قد توزعت في شعر نازك . إذ ليست لها قصائد وصفية لوحدها ، إلا أننا مع هذا نجدها في حالات الصحو والارتياح النفسي ، تكتب قصائدها التي تتغنى فيها بالطبيعة ، لتندمج بمظاهرها الساحرة ، إعجابا بها ، وافتتانا بروعتها ، وبما يثير في نفسها إحساسا خاصا بالحب.

وهكذا راحت نازك في إحدى قصائدها تصف جمال الطبيعة في شمال العراق، فتجوب سفوح الجبال والتلال ، وتتدفأ في أحضان الحقول والورود ، وتتفيأ في ظلال الصفصاف وتتغنى بخرير الماء وتطرب لنغم المطر مع الرعاة وأغنامهم ، وتهيم في شجرات الدفلى ، وتفضل ظلالها على ظلال القصور وتقول :

اعشقوا الثلج في سفوح جبال الأرض   والورود في سفوح التلال
وأصيخوا لصوت قمرية الحقل   تغني في واجفات الليالي
أجلسوا في ظلال صفصافة الوادي   وأصغوا إلى خرير الماء
واستمدوا من نغمة المطر الساقط   أحلى الالهام والإيحاء
وتغنوا مع الرعاة إذا مروا   على الكوخ بالقطيع الجميل
شجرات الدفلى أجمل ظلا   من ظلال القصور والشرفات

وهكذا تستلهم نازك ، الطبيعة ، وتستوحي أسرارها وجمالها وروعتها لإظهار مشاعرها الذاتية وعواطفها الرقيقة

ولشاعرتنا شعر كثير يعكس إعجابها بسفوح الجبال وأعماق الغابات . وربما كان هذا هروبا من عالم المدينة إلى حياة الغاب التي سبقها إليه شعراء المهجر .

وأقرب فصول السنة إلى نفس نازك هو الخريف ، بل هو أقرب إلى نفوس كل الرومانتيكيين الحالمين ، لأنه فصل سبات الطبيعة ، حيث تعصف الريح بالأشجار ، وتسقط الأوراق وتذبل الزهور ويجف الثمر وتصفر الحقول . ومن خلال مظاهره عبر الرومانتيكيون عن مآسيهم وبكوا أحزانهم ، ورثوا قصائدهم ، وندبوا حظوظهم.

وهكذا فعلت شاعرتنا أيضا حين عبرت عن حزنها ووجومها وكآبتها فراحت تقول:

طالما مر بي الخريف فأصغيت	لصوت القمرية المحزون
وأنا في سكون غرفتي الدحياء	أرنو إلى وجوم الغصون
طالما في الخريف سرت إلى الحقل	وأمعنت في وجومي وحزني
كيف لا والكآبة المرة الخرساء	قد رفرفت على كل غصن
وغصون الأشجار مصفرة الأوراق	والزهر ذابل مكفهر

فهذه الأبيات تجسيد لما في نفس الشاعرة من شعور بالملل والكآبة والإرهاق.

في مجموعات (عاشقة الليل) و(شظايا ورماد) و(قرارة الموجة) وفي غيرها أيضا ، تتضح النزعة الرومانتيكية في شعر نازك الملائكة ، ومع هذا فإن القارئ يلحظ في قصائدها أتجاها واقعيا تستمد موضوعاته من حياة الأمة العربية وخصوصا في سعيها إلى الحرية والتحرر والانطلاق .

وقد بدأ هذا التيار في مقدمتها لديوان أمها (أنشودة المجد) وفي إهدائها الذي أفصحت به عن انتمائها القومي الواقعي .

وحين قامت ثورة 1958 في العراق غنت نازك للثورة بقولها:

جمهوريتنا، فرحتنا ، يا حرقة أشواق وحنين

نحن عطشنا لك أعواما

جعنا وسهرنا ، غذيناها أحلاما

والآن ملكناها دفقة ضوء ويقين

وقد جاءت هذه القصيدة في ديوان (شجرة القمر)

وأكثر ما تتضح هذه الواقعية في قصائدها التي تتسم بالنزعة القومية ، وخصوصا حين تنادي بالوحدة العربية وتدعو اليها :

الوحدة الكبرى شدونا بها ونحن بالمهد صغار المنى

وكم بنينا صرحها المشتهى على تلال الرمل في أمسنا

وكم حسبنا أنها قد دنت منا فأخفى ضوءها المنحنى

على أن هذا لا يعني أن واقعية نازك لا تظهر إلا في قصائدها القومية، فالذي نره أن الشاعرة بدأت تفكر تفكيرا واقعيا بعيدا عن المثالية منذ أن أطلقت مقولتها (والحمد لله على أنني انتهيت إلى الإيمان بالله إيمانا كاملا عام 1957) على الرغم من أن هذا الاتجاه كان يسير سيرا بطيئا ، إلا أن الذي يقويه ، هو أن معظم زملاء نازك من الشعراء بدأوا منذ آنئذ يتجهون أتجاه واقعية بحكم التزامهم بمبدأ اليسار الذي كان رد فعل للوضع القائم في العراق . كما أن آخرين منهم أتجهوا أتجاها قوميا عربيا بفعل تأثرهم بثورة 1952 في مصر .